

## الإيديولوجية

الإيديولوجية وعد عظيم بما سيكون عليه الحال في المستقبل. لكن تاريخ الإنسانية لم يسجل حادثة واحدة تحقق معها الوعد كما تخيلته أبة إيديولوجية ورسمته في مخيلة أتباعها من الناس. لهذا تميل الإيديولوجيات عموماً إلى الكذب، وإلى فرض تصديق الكذب على أتباعها، وإجبارهم على الترويج للكذب وإنزاله أحياناً منزلة المقدس من الوعود. وهذا يجعل العيش مع الوعد الكاذب الملفوف بثوب القدسية كالعيش في سجن يريح النفس من عناء التفكير فيما يجب فعله في اليوم التالي، ما يجعل الخروج منه يعني الخروج عليه وعلى ثقافته، أي الهروب من هواء السجن الخانق إلى هواء الله والطبيعة الطلق.

ومن خلال سرد قصته مع السجن والمساجين والسجانين، يقوم السجين المحرر عادة، وبطريقة تلقائية، بفضح أسرار الإيديولوجية، وكشف عيوبها وأكاذيبها، والتشهير أحياناً بمواقف قادتها وممارساتهم على أرض الواقع. وهذا يعني من وجهة نظر المتزمتين الخروج على قدسية الإيديولوجية، ورفض وعودها العظيمة، وخيانة مبادئها السامية. ومن أجل ردع الأتباع وتخويفهم من مغبة الخروج من سجنها، اتجهت الإيديولوجيات عامة إلى تطوير أدوات فعالة لزرع الأتباع وإرهابهم وتكريس الشعور بالنقص لديهم. وانطلاقاً من هذه السياسة، اتجهت كل الإيديولوجيات إلى وصف الخارجين على مبادئها بالعملاء أو الخونة أو الجبناء، مما جعل بالإمكان ملاحقتهم وتحقيرهم، وهتك أعراضهم أحياناً، وتعريض حياتهم للخطر أحياناً أخرى. إن كل إيديولوجية لا تقوى على الوقوف أمام النقد إلا بتوجيه الاتهامات للآخر هي إيديولوجية ضعيفة، لا تقدم لأتباعها غير مذلة التبعية، والغرق في بحر وعود ضالة مضللة.

وحتى أولئك الذين يعتذرون عن دخول سجون الإيديولوجية ويعيشون حياتهم خارجها، لا يسلموا عادة من ملاحقة السجانين ونزواتهم العدوانية. فالسجانين لهم مهمة واحدة فقط: إدخال كل من يستطيعون إدخاله من الناس في سجونهم المظلمة، وحرمانهم من التحرر من هواء السجن الملوث بالكذب والتعرض لهواء الحقيقة الذي ينبض بالحرية. وهذا يجعل السجانين لا يتوقفوا عن التشهير بمن يعيش خارج سجونهم، والوشاية بهم وتخويفهم أحياناً، وإشعارهم بالنقص دوماً، والاتجاه إلى اتهامهم بالجهل حتى وإن كانوا من أفضل علماء عصرهم، لأن العلم في قواميس حراس سجون الإيديولوجيات يقتصر على حفظ طلائع إيديولوجياتهم، والإيمان بأكاذيبها العذبة، وتكرار وعودها الزائفة.

حين تستولي إيديولوجية على السلطة، يتحول المجتمع في ظلها إلى مجتمع عنصري، فيما تتحول الدولة إلى جهاز قمع وكبت على درجة عالية من الكفاءة والقسوة، يجمع كل من يتجرأ على التشكيك في شرعية الدولة أو مصداقية الإيديولوجية. وهذا يدفع الدولة الإيديولوجية عادة إلى تشكيل أجهزة مخابرات، تكون عيوناً لها في الداخل وفي الخارج، تتجسس على منتقديها وتلاحق معارضيها، كما تلاحق القطط الضالة الفئران الضعيفة محاولة اصطيادها والتمثيل بها.

كل الإيديولوجيات تمارس القمع ضد غير أتباعها من الناس. الأيديولوجية التي تقوم على تقديس الثقافات التقليدية تمارس القمع ضد المرأة والطفل والأسرة من خلال الرجل؛ والأيديولوجية التي تقوم على أساس ديني تمارس القمع ضد أتباعها ومعارضيه من خلال حلقات الوعظ والتنقيف والترهيب؛ والأيديولوجية التي تدعي شرعية تاريخية مطلقة تمارس القمع على المجتمع من خلال أدوات قمع بوليسية ومخابراتية وبيروقراطية وإعلامية، واحتكار السلطة؛ والأيديولوجية التي تنبثق عن أفكار قومية عنصرية تمارس القمع ضد الأقليات في بلادها من خلال هدر حرياتها ومصادرة حقوقها، والأيديولوجية التي تتطلق من أساس مادي مثل الماركسية والرأسمالية تمارس الاستغلال، وأحياناً القمع والتفرقة ضد الآخر. ليس هناك أيديولوجية تحترم إنسانية الإنسان وتعترف بحقوقه كاملة، أو تساوي بين أتباعها وغيرهم من المواطنين.

وكي يعيش الفرد حياته خارج سجن الأيديولوجية دون أن يتعرض للاتهام بالخيانة أو العمالة أو التآمر، أصبح عليه، وذلك كما هو عليه الحال في المجتمعات العربية عامة، أن يسلك سلوكاً يقوم على الازدواجية، أن يُبطن ما لا يُظهر، أن يقول ما لا يفعل، أن يدافع عما لا يؤمن به، أن يبدي تصديق ما يسمع بينما يكذب عقله وقلبه ما يُفرض عليه سماعه، وأن يقبل لنفسه أن يصبح في أعين المقربين منه، كأولاده وأصدقائه وطلابه، مثالا جيدا للنفاق والانتهازية.

توفر المجتمعات المغلقة التي تلف نفسها بعلم الوطن أو الدين أو عبادة التراث أفضل بيئة لسيادة الإيديولوجيات الأكثر كذباً، والأقدر على ممارسة القمع والكبت. المجتمعات الوحيدة القادرة على تحصين نفسها من القمع والكبت والكذب هي المجتمعات المفتوحة التي تسود فيها ثقافة التسامح، وتؤمن بأن أفضل طريق للإيمان هو الطريق الذي يبدأ من الشك، وأن اعظم وسيلة للوصول إلى اليقين هي استخدام العقل، والرجوع إلى العلم كلما تعكرت الأجواء وازدادت الأمور تعقيداً، والسير على هدى التجربة الإنسانية، والتعلم من تجارب الغير من الشعوب.